المحددات المنهاجية في القرآن الكريم
أصول تفسيرية ذات أولوية..
محدد "الإكمال والإتمام" نموذجا

إعداد

د. سعيد شبار

جامعة السلطان مولاي سليمان . بني ملال

المغرب

المؤتمر العالمي الثالث للباحثين في القرآن الكريم وعلومه

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئـــة:

ترددت على ألسنة كتاب كثيرين قوله أن بعض العلوم "نضجت حتى احترفت" وأن "بعضها لم ينضج بعد". لكن عند الفحص والتأمل في هذه العلوم وما ينبغي أن تكون عليه كي تكون فعلا كاشفة لحقيقة الإسلام وعاكسة لها في مختلف مجالات اشتغالها، يتبين أنها بحاجة إلى مزيد من الإنضاج باستئناف النظر التجديدي فيها بما يواكب التحولات العلمية والحضارية والاجتماعية في الأمة. فالأصل في العلوم "الإسلامية" أن تعكس حقيقة الإسلام في تجلياتها القيمية الأخلاقية، والإنسانية الاجتماعية، والكونية الطبيعية.. وغيرها. ذلك أنه في المنظور الإسلامي نفسه، كل العلوم باحثة وفاحصة ومستكشفة ومحللة ومفككة ومركبة؛ وبعبارات القرآن الكريم: ناظرة، ومبصرة، ومتفكرة، ومعتبرة، ومتفقهة ومتعلقة.. في الآيات التي بثها الله تعالى في النص وفي الآفاق وفي الأنفس. ومن ثم فالتصنيف إلى علوم "دينية" وأخرى "إنسانية" وثالثة "مادية طبيعية" هو طارئ على المنظور الإسلامي وليس أصيلا فيه. وهذا الذي جعل بعض العلوم لضيق مساحة اشتغالها تنكمش على نفسها وتكرر ذاتها طورا بعد آخر حتى قيل فيها "احترفت". والواقع أن فيها من إمكانات التجدد ما يؤهلها إلى المواكبة الدائمة مادامت تمتح وتستمد من معين لا ينضب.

في موضوعنا المتعلق بالقرآن الكريم وأصوله التفسيرية يتجلى لنا هذا الأمر بوضوح، هل ما قيل في أصول تفسير القرآن الكريم كاف لعكس وتجلية حقيقته أم أن الحاجة ملحة على ضرورة النظر التجديدي المستأنف في هذا الباب؟. فالأصل في الكتاب المجيد المستوعب للزمان والمكان والإنسان وأن يسعف كل جيل ومرحلة ومكان بما يحتاجه دينا ودنيا، أو عادة وعبادة. ولهذا لا يمكن إزاء كتاب الله المطلق الحسم والقطع في قضاياه بوضع نقطة أو نقط نهائية دون العودة والرجوع، إلا ما حسم فيه هو نفسه من قضايا اعتقادية وتكليفية. فهو مأدبة الله المفتوحة على امتداد تصبب منها الأجيال ما يصلح حالها ومآلها.

من ههنا تعتبر هذه الورقة الحديث عن "المحددات المنهاجية" حديثا عن أصول تفسيرية ذات أولوية. وإذا كتب عن أصول التفسير ما كتب "فإن" المحددات المنهاجية" لم يكتب فيها ولا عنها ما ينبغي أن يكتب، على أن دورها ووظيفتها توازي إن لم تكن تتجاوز تلك الأصول. بل أحيانا نجد "الأصل" هو "المحدد" نفسه، لكن بأبعاد وظيفية إضافية تفعل دوره التوجيهي والتأطيري. فما المحدد المنهجي؟ وما الفرق

بينه وبين المقاصد الكلية والخصائص؟ وكيف يبنى؟ وما وظيفته؟.. تلك الأسئلة سنحاول أن نقدم بين يديها إجابات، نحن متأكدون أنها غير وافية ولا مقنعة، وأن ما كتب فيها يحتاج إلى مزيد من تدقيق النظر والكشف عن الأبعاد والدلالات الجديدة فيه. كما أننا سنقدم نموذجا نحسبه جديدا ضمن هذه المحددات هو محدد "الإكمال والإتمام" الذي نصت عليه الآية الكريمة "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكن الإسلام دينا" (المائدة3). وحسبنا في كل ذلك لفت النظر أمام الباحثين لمزيد من البحث في الاتجاه.

. المحددات المنهاجية: أبعاد معرفية ووظيفية.

كتب كثيرون عن خصائص القرآن الإعجازية، لغوية بيانية، وأحكامية تشريعية، وعلمية كونية، ونفسية اجتماعية.. وغيرها . وكل ذلك وارد ولاشك في كتاب الله المجيد مصداقا لقوله تعالى "سنريكم آياتنا الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق" (فصلت 53).

وظهور الآيات، أي العلامات، سواء في النص أو الأنفس أو الآفاق يستلزم ضرورة الإبداع في العلوم التي تزيد تلك الآيات تكشفا ونصوعا في مجالات الحياة المختلفة بما ينفع الناس في دنياهم وأخراهم. وذلك ما قدمت فيه الأمة نموذجها الحضاري الإنساني العام لما كانت رائدة وقائدة في هذا الاتجاه، متحققة بمفهوم الخيرية والشهادة على الناس، باعتبارها إماما تؤمهم نحو قيم الخير والرشاد والصلاح والفلاح. إلى أن انقلبت أوضاعها لإهمالها سنن العلم والعمل المرتبطة بالإيمان والظهور.

وليس الغرض من البحث في وعن الخصائص العلمية الإعجازية بهذا المعنى المباشر المفيد للتحدي وإن كان شيء من ذلك حاصل وملازم لطبيعة النص نفسه باعتبار خصائصه المستوعبة والمتجاوزة زمانا ومكانا وإنسانا إذ هو وحي الله المطلق الخالد.

وكتب آخرون عن السنن الإلهية في الأنفس والمجتمع، وفي أحوال الأمم ازدهارا وانهيارا. والتي يمتد بعضها ويتسع لسنن كونية عامة.

ولقد أحصى بعض الباحثين من هذه السنن ما يناهز الثلاثين سنة [1](*)، دون أن يدعي الحصر لأنه لا يمكن حصر كتاب مفتوح ومطلق، وإن كان ما نرومه في بحثنا هنا ليس المزيد من الكشف عن السنن بهذا

(*) انظر: السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم، أصول وضوابط، مجدي محمد عاشور.

المعنى الذي سلكه الكاتب، فإنه يهمنا من قوله تأكيده مرارا على كون سنن الله تعالى في الأمم والجماعات كسننه في الكون والطبيعة، فكما تسقط تفاحة إلى الأرض بفعل سنة الجاذبية، تسقط أمة أو جماعة بفعل إهمال سنن النهوض، وتنهض بإعمالها. كما أن حصره لخصائص هذه السنن في "الثبات"، و"الإطراد" و"العموم" و"تساوقها مع الفطرة".. مهم كذلك في هذا الباب.

وكتب عن الخصائص العامة للإسلام أكثر مما كتب عن المواضيع السابقة سواء تعلق الأمر بخصائص الشريعة الإسلامية، أو الثقافة الإسلامية، أو الإسلام عموما. فهي ذات الخصائص تتكرر..: الربانية، الأخلاقية، الواقعية، الإنسانية، التناسق، الشمول، العالمية، التسامح، الوسطية، التكامل، الواقعية، الوضوح، الثبات، المرونة.. الخ. وهذه خصائص يمكن أن يندرج بعضها تحت بعض وهي ليست كذلك للحصر، إذ يمكن استخلاص ما يماثلها في مجالات التدين المختلفة.

وفي محاولة لاستجماع محاور القرآن الكريم الأساسية نجد دراسات قليلة في هذا الاتجاه، من قبيل ما فعله العلامة الشيخ محمد الغزالي رحمه الله لما جعل تلك المحاور خمسة (*)، وهي: الله الواحد، الكون الدال على خالقه، القصص القرآنية، البعث والجزاء، ميدان التربية والتشريع..

وعلى هذا النحو أيضا درج التفسير الموضوعي الذي يتتبع موضوعات يجمع ما تعلق بها من آيات في القرآن كله، وهو إن لم يتناول كل الشبكة المفاهيمية للقرآن في تداخلها وتكاملها، يبقى أكثر دلالة وتعبيرا عن المراد، من التفسير الجزئي الطولي الذي يفسر آية بعد آية.

نخلص من هذا كله إلى الحديث عن نظر مستأنف في هذا الباب، اشترك مع ما تقدم في البحث عن أصول وكليات منهجية ترشد وتصوب النظر تفكرا وتدبرا في كتاب الله العزيز. لكنها تختلف عنها في كونها وظيفية إجرائية أكثر منها وصفية تقريرية. وهو المقصود ب "المحددات المنهاجية". ولا نكاد نعثر من بين المشتغلين عليها في فكرنا الإسلامي الراهن إلا على قليلين منهم اسمان بارزان، هما المرحوم الحاج حمد أبو القاسم وفضيلة الدكتور طه جابر العلواني عافاه الله. أما الدكتور الحاج حمد فقد تحدث عنها بالخصوص في كتابه "منهجية القرآن المعرفية"، حيث تحدث في فصله الأول عن "خصائص وإعادة الترتيب الوقفي للكتاب" و"بنائية القرآن وضبط دلالات اللغة". وحيث تحدث في فصله الثاني عن: "الجمع بين القراءتين، مراتبه والتأسيس الإبراهيمي" تحته عناوين فرعية في أزيد من عشرة مباحث.

(*) انظر له: المحاور الخمسة للقرآن الكريم.

وكما هو واضح من العناوين الأصلية أو الفرعية فالكتاب يدور حول استجلاء ملامح المعادلة البنائية بين كتاب الله المنظور وكتابه المنظور، وما يستتبعه ذلك من ضوابط منهجية تخدم هذه البنائية النسقية المنضبطة على مستوى اللغة والألفاظ، وعلى مستوى المعاني والدلالات، مستبعدا في ذلك كل ما تم توازنه من غير تدقيق في مباحث علوم القرآن من قول بالنسخ أو التكرار أو الترادف.. أو غير ذلك مما يخل بالإحكام المنهجي للآيات، بل وبأسماء الكتاب نفسه في كونه كريما ومكنونا ومجيدا... الخ. فكما يقرأ الكون المنظور بمداخل العلوم المختلفة وفق نظامه وسننه، يقرأ كذلك الكتاب المنظور بمداخل العلوم المختلفة وفق نظامه وسننه، إذ الاستعمال الإلهية للكلمات والأشياء ليس قطعا كالاستعمال البشري لها وإن كانت المادة المستعملة هي نفسها.

فالمنهجية عنده هي: "تقنين للفكر، ودون هذا التقنين يتحول الفكر إلى تأملات وخطرات انتقائية قد تكون عبقرية ومشرقة جدا وذات جدوى في كثير من الأحيان وتصلح للمواعظ والمجادلة الحسنة ولكنها لا تكون منهجية، فمنهجية الأفكار أو تقنينها بالمنهج تماثل حالة توليد القوانين من الطبيعة"[1]

إن المنهجية التي نعنيها هي خروج العقل من حالة التوليد الذاتي للمفاهيم إلى اكتشاف النسق المرجعي الذي يحاكم هذه المفاهيم نفسها ويؤطر لإنتاجها بحيث يحكم التطبيقات في مختلف الحقول الأخرى، فالمنهج هو خلاصة قوانين تحولت إلى نظريات تحولت بدورها إلى إطار مرجعي وليس مجرد صياغة موضوعية للتفكير"[2] والمعرفية عنده "وليست.. شكلا من أشكال التفكير المادي، وليست نتاج مذهب وضعي هين، إنها تعبير يستهدف الأخذ بالآفاق الواسعة لقدرات الثقافة العلمية المعاصرة وتوظيفها في إعادة اكتشاف وتحليل إشكاليات المجتمع والثقافة الإنسانية. فالمعرفية يمليها النقدي العلمي هي خصم لمقولات.. الإيديولوجيا" أو الفكر التاريخي الساكن. فالمعرفية ليست مجرد نقد لظواهر الثقافة والمجتمع وفي شتى المجالات، إنها معرفي الجذور بحيث ترد كل إنجاز ثقافي إلى تاريخيته وتحاول تفكيك النظم والمفاهيم ودلالات اللغة ووسائط الاتصال بين الذهن والعالم. فالمعرفية إما أن تحقق في النهاية قطيعة عدمية مع الخلفيات الموروثة وإما أن تعيد توظيفها على نحو معاصر ومن منطلق نقدي وتحليلي. فالمعرفية ترتبط دوما ببناء مشروع حضاري في

1 – منهجية القرآن المعرفية. حاج حمد، ص 34.

2 – نفسه، ص: 35.

إطار ثقافي عالمي معاصر ودون نزعة أيديولوجية"[1]. والحق أن الحاج حمد رحمه الله كان سباقا إلى طرح كثير من الآراء المحفزة على البحث في هذا الاتجاه والتي يشتغل عليها البعض اليوم.

أما بخصوص د. طه جابر، فقد عرض للموضوع في أكثر ن مؤلف. فنجده من جهة يفرد لبعض هذه المحددات مؤلفات خاصة مثل "الجمع بين القراءتين" و"الوحدة البنائية للقرآن المجيد" و"معالم في المنهج القرآني".. وأحيانا يأتي على ذكرها في مواطن متفرقة من باقي الكتب كما في: "التوحيد والتزكية والعمران" والخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي". ونحو "التجديد والاجتهاد".. والكتاب الجامع "نحو منهجية معرفية قرآنية".. وغيرها من الكتب التي محورها الأساسي المراجعة النقدية على أساس المحددات المنهاجية والمقاصد العليا الحالمة. ففي "الوحدة البنائية للقرآن المجيد" وتحت "عنوان "ضرورة الوحدة للتدبر" يقول: "إنه قرآن أراد قائله ومنزله – تبارك وتعالى– له أن يقرأ ويتدبر ويتفكر فيه، ويعقله العالمون ويرتله المرتلون ويتلوه التالون ويتبعه المهتدون، فأودع الله تبارك وتعالى فيه كل ما يجعله جاذبا بالأصناف الخلق كافة، مستدعيا لهم لقراءاته، قادرا على صنع الدوافع والدواعي والإرادات لترتيله وتلاوته. و"وحدته" تمثل الركن الأساس في هذا – كله– ولذلك فإنه مهما اتخذنا من الأساليب في الرجوع إليه فلن نستطيع أن نهتم بجانب من جوانبه ونهمل الجوانب الأخرى. فإذا قلت: أنا قاض أو فقيه تهمني آيات الأحكام – وحدها– فاجمعوا لي كل ما بدى بأمر أو نهي من الآيات لأتدبره وأستخرج القوانين والأحكام منه، فإنك لن تلبث إلا يسيرا لتدرك أن ذلك – وحده– لن يلبي حاجتك، ولن تكشف لك آيات الأحكام عن دقائقها وقد فصلت الغصن عن الشجرة، فمعاني الآيات لن تسفر لك عن وجهها حتى تقرأها في سياقها وموقعها وبيئتها، تقلب طرفك وعقلك ولبك وفؤادك، تصيغ السمع إلى نبضات الحياة في قلبك في ذلك –كله– ولن تبلغ الغاية ولن تدرك المراد حتى تلاحظ سائر العلاقات بين الآية وبين القرآن كله، يقودك توفيق الله تعالى ويصاحبك اسمه في الرحلة التي حين تتذوقها فلن تستطيع التوفيق عن مداومتها. لأن القرآن بناء محكم واحد، ونظم متفرد واحد تسري فيه –كله– روح واحدة تحوله إلى كائن حي يخاطبك كفاحا، ويشتبك معك في جدل شامل يجيب به عن تساؤلات، ويسقط عنك إصر شبهاتك، ويقيد تصميم تصوراتك وبناء قواعد ومنطلقات أفكارك وتصحيح معتقداتك حتى يضعك على الصراط المستقيم لتستقيم على الطريقة وتبلغ شاطئ الحقيقة، ولذلك قال الإمام الشافعي – رحمه الله– وهو ينبه إلى خطا من تصور أن آيات الأحكام هي ما صدر بأمر ونهي، قال: "ألا وإن في الأمثال لأحكاما كثيرة"[2] ولقد استثمر الكاتب في هذا السياق "نظرية النظم" و"التفسير

1 – نفسه، ص: 37.

2 – الوحدة البنائية للقرآن المجيد، طه جابر العلواني، ص: 17–18.

الموضوعي" و"تفسير القرآن بالقرآن" وغيرها من الجهود السابقة التي كانت في واقع الأمر تعبيرا وتعريفا أوليا لهذا المحدد "الوحدة البنائية" من زوايا مختلفة.

وفي "الجمع بين القراءتين، قراءة الوحي وقراءة الكون" نقرأ للكاتب قوله: "تبرز محددات ومنهجية القرآن المعرفية" وتتحقق من قراءة الكتابين: القرآن والكون، وتؤسس على مقابلتهما والكشف عن التفاعل والتكامل بينهما، وإبراز المنهجية في البحث والاكتشاف انطلاقا منهما. الكتاب الأول وهو كتاب الوحي المقروء، ونعني من "القرآن" لأنه وحده الكتاب الكوني الذي يعادل الوجود الكوني وحركته ويستوعبها بأبعاده الكونية. والكتاب الثاني هو كتاب الكون المتحرك الذي يتضمن ظواهر الوجود كافة. فالقرآن العظيم والكون البديع كلاهما يدل على الآخر ويرشد إليه، ويقود إلى قواعده وسننه، فالقرآن يقود إلى الكون ويمارس دوره في الهداية فيه، ويوظفه بوجوه كثيرة لتسخير مكوناته ولتوضيح قضاياه وتأييد دعاواه والكون أيضا يقود إلى القرآن ليسقط أسئلته عليه ويستعين به لإرشاد الإنسان إلى كيفية التعامل معه واستثمار تسخيره. ومعرفة هذا وإدراكه والعمل بمقتضاه هو ما أطلقنا عليه "الجمع بين القراءتين"، قراءة تبدو غيبية تنشأ في إطار الوحي وتنطلق باتجاه الكون، وقراءة موضوعية تنطلق من الكون وعناصره باتجاه الوحي، فقراءة الوحي بمثابة تنزل من الكلي إلى الجزئي فتدرك بقدر ما تتيحه القدرات البشرية النسبية من الفهم لتنزلات الكلي وكيفياتها، وقراءة الكون تقدم القضايا والمسائل، والأسئلة الجزئية وترفعها إلى سدة الوحي ليهتدي الإنسان القارئ في الاثنين إلى الإجابات السليمة من المصدر الذي يهدي للتي هي أقوم، وتبدو للإنسان القارئ آنذاك جدلية العلاقة بين المصدرين: الوحي والكون، أو علاقة "الفهم التكاملي المتبادل والجدل والتفاعل" بينهما بأفضل ما تكون"[1].

ذكر الكاتب عدة مداخل لقراءة القرآن من منظور الجمع بين القراءتين، منها:

– مدخل الإيمان بالوحدة البنائية للقرآن– مدخل الانطلاق من الإيمان بوحدة السورة، مدخل القيم العليا، وهي التوحيد والتزكية والعمران. وهذه عند الكاتب قد "بلغت من الأهمية مستوى يمكن من القول بأنها محاور القرآن المجيد الأساسية الذي تدور سوره وآياته وكلماته – كلها– حولها"[2]. – مدخل العلاقات بين الله تبارك وتعالى والإنسان والكون المسخر– مدخل التصنيف الموضوعي– مدخل البحث في المناسبات

1 – نفسه، ص: 29–30.

2 – نفسه، ص37، وانظر توظيفا لهذه المقاصد في مجالات عدة علمية وفكرية ومنهجية كتاب "نحو التجديد والاجتهاد، مراجعات في المنظومة المعرفية الإسلامية.

(أو التناسب بين الآية والسور). ثم ذكر بعدها مداخل أخرى لقراءة الكون منها: – مدخل الخلق– مدخل العناية– مدخل النظر في الواقع الموضوعي الخارجي. كما ذكر لاكتشاف "التداخل المنهجي بين القرآن والكون والإنسان" علوما ومعارف كافية وأن "قواعد المنهج القرآني" أرسيت على الدعائم التالية:

–إعادة بناء الرؤية الإسلامية المعرفية – إعادة فحص وتشكيل وبناء قواعد المناهج الإسلامية– بناء منهج للتعامل مع القرآن المجيد – بناء منهج للتعامل مع السنة النبوية المطهرة– إعادة دراسة وفهم تراثنا الإسلامي – بناء منهج للتعامل مع التراث الإنساني المعاصر.

في كتاب "معالم المنهج القرآني" عرض الكاتب لـ "قواعد التفكير المشتركة" التي أوجدها العلم، والتي غدت هي "القاعدة التي يتحرك الجنس البشري في جميع أنحاء العالم وفقا لها بمستويات مختلفة"، كما تقوم بدور الضبط لمصادر التفكير ووضع قواعده"[1] كما عرض لـ "المنهجية الكونية القرائية" والتي "لا مصدر لها إلا القرآن وحده، لأنه –وحده– الكتاب الكوني الذي يستطيع أن يستوعب المنهجية العلمية ويقوم بتنقيتها وترقيتها (...) ويحمي[ها] من تهديدات ومخاطر النسبية والاحتمالية والنهايات التي اعتبروها حكمية"8. "إن دور المنهجية القرآنية، هو أن تطور مناهج العلوم الطبيعية والاجتماعية وتعطيها بعدها الكوني وتطهرها من الأبعاد الوضعية الضيقة التي حشرت فيها وذلك تصديق بالقرآن عليها". ف "القرآن المجيد يتجاوز فلسفة العلوم الطبيعية وقوانينها بعد أن يستوعبها" وهو "بكونيته" يمكن أن يبني ويؤسس "الإطار الكوني الشامل للفكر الإنساني" ويصدق على العلم ومنهجه ومنطقه، ولا يهيمن ويوجه الجهود الإنسانية بشكل جماعي لتطوير الأرض وإعمارها وإنماء ما فيها، ويمكنها من مواجهة الأزمات العالمية الراهنة، مثل أزمة التلوث البيئي، وأزمة وسائل الدمار الشامل، وأزمة الغذاء والدواء، والموارد والصراع، وانتشار الجرائم وتفكك الأسرة وسائر المسلسل الذي تعاني البشرية كلها منه"[2]

ونختم هذه النقول بحديث الكاتب عن المحددات المنهجية القرآنية"[3] حيث جعلها في:–"التوحيد محور الرؤية الكلية القرآنية"، فهو "مدخل تفسيري: وقابليات هائلة وقدرات متنوعة لتفسير آلاف الظاهرات النفسية والسلوكية والنظمية والمعرفية في مختلف المستويات". –"الجمع بين القراءتين"، وقد تقدمت الإشارة إليه– "الوحدة البنائية للقرآن الكريم والاستيعاب الكوني" وقد تقدمت الإشارة إليه كذلك.

1 – معالم المنهج الإسلامي، د. طه جابر ص 37.

2 – نفسه، ص: 80–81.

3 – نفسه، ص: 82 وما بعدها.

إن الملاحظ في كل ما تقدم من بيانات وتوضيحات بسطنا فيها العرض قليلا للتعرف على الموضوع أكثر، تداخل كثير من العناصر وانبناء بعضها على بعض، بل وتبادلها المواقع في كون ثارة أصلا وكلا مخدوما، وفي كونها ثارة فرعا وجزءا خادما لغيره من الأصول. وكلها قضايا تحتاج إلى مزيد من التدقيق في البناء المعرفي وفي الأداء الوظيفي.

وجوابا على ما تقدم من أسئلة حول "المحدد المنهاجي" نقول أنه لا يكون إلا أصلا كليا وإطارا مرجعيا ينتظم الرؤى والتصورات والمناهج والآليات، بل ينتظم الخصائص والمقومات نفسها ويدمجها في نسقه ويعطيها أبعادا عملية وظيفية له قدرة بنائية تأسيسية، وقدرة تفسيرية استيعابية وقدرة نقدية تقويمية وقدرة بنائية إرشادية.. يشترك مع غير في كثير من الخصائص والمقومات "كالمقاصد العليا الحاكمة"، و"المنهجية العلمية الكونية".. لكنه يختلف من جهة إمكاناته الإجرائية الوظيفية وقدراته المختلفة خصوصا على صعيد النقد والمراجعة والتقويم. والنقد والمراجعة والتقويم.. هي المداخل التي نعتقد أن المعرفة والعلوم الإسلامية والإنسانية بحاجة إليها اليوم أكثر بعد هيمنة التحريف والأغراض والأهواء عليا.

أما كيف يبنى "المحدد المنهاجي" والجمود والتقليد أو بالأحرى كيف يستكشف؟ فتلك عملية مركبة تتم داخل النسق والنظام القرآني وداخل معادله الموضوعي النظام والنسق الكوني. كما تتم من خلال رصد وتتبع قدراته في السياقات المذكورة آنفا وفي غيرها. إنه عمل أشبه ما يكون ببناء "مذهب" عقدي أو فقهي في امتداده النظري والعملي معا. ولا نزاع هنا، ولا يستطيع أحد أن يزعم أن بإمكانه أن يضع نقطه نهاية في الحديث عن أي محدد، أو مقوم، أو خصيصة، أو مقصد.. الخ. فالكتاب المطلق المستوعب للزمان والمكان يبقى كذلك على مستوى كل قضاياه ومعارفه ومنهاجه.. يأخذ منها كل جيل لعصره ما استطاع، ملتمسا حلولا وأجوبة لمشكلاته وأزماته.

ومن هذا المنظور حاولنا عرض تقديم أفكار أولية حول "محدد" – نراه كذلك– لا يقل إمكانات وقدرات على ما عرض من "محددات" أو "خصائص"، أو "مقومات" "محدد الإكمال والإتمام" في القرآن الكريم. هذا علما أننا لم نستوف كل المحددات بحديث أو بيان، كمحدد "الحفظ"، ومحدد "الختم"، ومحدد " التصديق والهيمنة".. وغيرها.

. محددات الإكمال والإتمام

السياق التاريخي ومقدمات في البناء المعرفي والوظيفي

سياق تاريخي:

ننطلق في البداية في بناء هذا المحدد من الآية المباشرة في الموضوع، وهي قوله تعالى: "اليوم أكلمت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا" (المائدة3) حيث نجد معظم تفسيرات الآية تتجه إلى أمرين، الأول محاولة إعطاء معنى للإكمال والإتمام، والثاني، الرد على من زعم أن الدين كان ناقصا قبل تمامه وكماله. وقبل إبداء الرأي نستأنس أولا بأقوال العلماء التي لا تخول ن إفادات وتوجيهات قيمة في الموضوع.

فمن أقدم المفسرين نجد مقاتل (150هـ) يقول: "اليوم أكلمت لكم دينكم "يعني يوم عرفة، لم ينزل بعدها حلال ولا حرام، ولا حكم ولا حد ولا فريضة، غير آيتين من آخر سورة النساء "يستفتونك..." (136). "اليوم أكلمت لكم دينكم" يعني شرائع دينكم، أمر الحلال والحرام، وذلك أن الله جل ذكره كان فرضا على المومنين شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول لله صلى الله عليه وسلم، والإيمان بالبعث(...) وكل فريضة".

وذكر الشاطبي عن ابن الماجشون قال: سمعت مالكا (179هـ) يقول: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمد صلى الله عليه وسلم قد خان الرسالة لأن الله يقول: "اليوم أكملت لكم دينكم" فما لم يكن يومئذ دينا فلا يكون اليوم دينا"

وذكر الماتريدي (333هـ) قول أبي عبيدة: "كان دينهم إلى ذلك اليوم ناقصا، فحينئذ كمل دينهم "فعلى زعمه أن النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الخلق إلى دين ناقص، ومن مات من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار (ض) ماتوا على دين ناقص، وعشرون يوم القيامة على دين ناقص... وأي قول أو حتى من هذا وأس*؟

وقال آخر من أصحابه: كان الدين كاملا إلى ذلك الوقت، فلما بعث الله بالفرائض وافترض عليهم صار الدين ناقصا إلى أن يؤدوا الفرائض وما افترض عليهم، فعند ذلك يكمل. فهذا القول أيضا في الوحشة والحاجة والقبح مثل الأول. ويقال لأبي عبيد: قل أيضا أنه لم يكن رضي لهم بالإسلام قبل ذلك رضا.

والأصل في تأويل الآية في وجوه: أحدها: "اليوم أكملت لكم دينكم، أي برسوله وببعثه "أكملت لكم دينكم" وله "أتممت عليكم نعمتي". الثاني: قوله "اليوم أكملت لكم دينكم" أي اليوم أظهرت لكم دينكم ولم يكن قبل ذلك ظاهرا حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "نصرت بالرعب مسيرة شهر" (البخاري). وقال "ألا لا يحجن بعد العام مشرك" (البخاري) وذلك لظهور ولغلبة أهل الإسلام عليكم وإن لم يكن هذا قبل ذلك. الثالث: قوله: "اليوم أكملت لكم دينكم" لما أمنوا من العدو والعود إلى دين أولئك. وإيا من أولئك من رجوعهم إلى دين الكفر. وأي نعمة أتم وأكمل من الأمن من العدو؟ ويقول الرجل: اليوم تم ملكي إذا أهلك عدوه. وإن كان لم يوصف ملكه قبل ذلك بالنقصان. فعلى ذلك هذا والله أعلم. الرابع: قوله "اليوم أكملت لكم دينكم" أي أمر دينكم بما أمروا وشرائع لم يكونوا أمروا بها قبل ذلك. وهذا جائز. وقوله: "ورضيت لكم الإسلام دينا" أي أكرمتكم بالدين المرضي وهو الإسلام. كقوله تعالى "ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم" (الزمر/7).

وأهم ما ذكر الإمام الطبري في الآية:

– أنها إكمال للفرائض والحدود، والأمر والنهي، والحلال والحرام، وبيانه ذلك على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم.

– أنه بعد الإكمال فر زيادة فيه.

– أن إظهار النعمة هي الظهور على العدو وقطع طمعه.

– أن رضا الإسلام، هو رضا الاستسلام والانقياد والطاعة.. وللطبري هنا بيان جيد لقول من قال: "أو لم يكن الله راضيا الإسلام لعباده إلا يوم أنزل هذه الآية؟ قيل: لم يزل راضيا لخلقه الإسلام دينا، ولكنه جل ثناؤه لم ينزل يصرف نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه في درجاته ومراتبه، درجة بعد درجة ومرتبة بعد مرتبة وحالا بعد حال، حتى أكمل لهم شرائعه ومعالمه وبلغ بهم أقصى درجات الإسلام ومراتبه، ثم قال حين أنزل عليهم هذه الآية "ورضيت لكم الإسلام دينا" بالصفة التي هو بها اليوم والحال التي أنتم عليها اليوم منه "دينا" فألزموه ولا تفارقوه".

وذكر الاختلاف في "اليوم" في كونه معلوما أو مجهولا. فقيل "يوم عرفة يوم الجمعة" وقيل "يوم الاثنين"، وروي الأول عن عمر، وأنه رضي الله عنه بكى لما نزلت، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم "ما

يبكيك" قال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذ كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص، فقال: صدقت. وأن اليهود قالت لعمر: "إنكم تقرأون آية لو أنزلت فينا لاتخذناها عيدا".

وذكر ابن الجوزي في معنى "إكمال الدين" خمسة أوجه، هي ما تقدم مع إضافة وجه جديد قال فيه: "أنه أمن هذه الشريعة من أن تنسخ بأخرى بعدها. كما نسخ بها ما تقدمها". وفي "إتمام النعمة" ذكر ثلاثة أوجه: أحدها: منع المشركين من الحج معهم... الثاني: الهداية إلى الإيمان. الثالث: الإظهار على العدو.

ونفس المعاني نجدها عند: ابن كثير، إلا أننا نجد مع القرطبي استدراكا على قول من قال أنه لم ينزل بعدها حلال ولا حرام، حيث قال: "وقد نزل بعدها قرآن كثير، ونزلت آية الربا ونزلت آية الكلالة إلى غير ذلك، وإنما كمل معظم الدين وأمر الحج إذ لم يطف معهم في هذه السنة مشرك ولا طاف بالبيت عريان ووقف الناس كلهم بعرفة"، وجوابا على من قال بنقصان الدين أولا ثم اكتماله. و"أن النقص عيب". يرد القرطبي بقوله: "يقال له لم قلت إن كل نقص هو عيب وما دليلك عليه؟ ثم يقال له: أرأيت نقصان الشهر هل يكون عيبا ونقصان صلاة المسافر أهو عيب لها، ونقصان العمر الذي أراده الله بقوله "وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره" (فاطر11) (...) فما أنكرت أن نقصان الدين في الشرع قبل أن تلحق به الأجزاء الباقية في علم الله تعالى، هذه ليست ** ولا عيب. وما أنكرت أن معنى قوله تعالى "اليوم أكملت لكم دينكم" يخرج على وجهين: أحدهما: أن يكون المراد بلغته أقصى الحد الذي كان له عندي فيما قضيته وقدرته. وذلك لا يوجب أن يكون ما قبل ذلك ناقصا نقصان عيب، لكنه يوصف بنقصان مقيد. فيقال له: إنه كان ناقصا عما كان عند الله أنه ملحقه به وضامه إليه، كالرجل بلغه الله مائة سنة فيقال: أكمل الله عمره، ولا يجب عند ذلك أن يكون عمره حيث كان ابن ستين كان ناقصا نقص قصور وخلل (...) فهكذا، هذا في شرائع الإسلام وما كان شرع منها شيئا فشيئا إلى أن أنهى الله الدين منتهاه الذي كان له عنده. والله أعلم".

والوجه الآخر: أنه أراد بقوله: "اليوم أكملت لكم دينكم" أنه وفقهم للحج الذي لم يكن بقي عليهم من أركان الدين غيره(...)... ورضيت لكم الإسلام دينا" أي أعلمتكم رضاي به لكم دينا، فإنه تعالى لم يزل راضيا بالإسلام لنا دينا (...)، ويحتمل أن يريد.. رضيت إسلامكم الذي أنتم عليه اليوم دينا بانيا بكماله.."

وقد اختصر الرازي أقوال المفسرين قبله فيما تقدم من الأقوال في وجوه عدة. نذكر مما ورد عنده إضافة إلى ما تقدم. القول الثالث "الذي ذكره القفال وهو المختار: أن الدين ما كان ناقصا البتة، بل كان أبدا

كاملا، يعني كانت الشرائع النازلة من عند الله في كل وقت كافية في ذلك الوقت. إلا أنه تعالى كان عالما في أول وقت المبعث بأن ما هو كامل في هذا اليوم ليس بكامل في الغد (...) وأما في آخر زمان المبعث فأنزل الله شريعة كاملة وحكم ببقائها إلى يوم القيامة. فالشرع أبدا كان كاملا، إلا أن الأول كمال إلى زمن مخصوص والثاني كمال إلى يوم القيامة. فلأجل هذا المعنى قال: "اليوم أكملت لكم دينكم". وقال في معنى "أتممت عليكم نعمتي".. بسبب ذلك الإكمال لأنه لا نعمة أتم من نعمة الإسلام".

وقال الشوكاني "وأتممت عليكم نعمتي": "بإكمال الدين المشتمل على الأحكام، وبفتح مكة وقهر الكفار، وإياسهم على الظهور عليكم".

ومن التفاسير المتأخرة نجد ما ذهب إليه ابن عاشور من تدقيق في كلمة "اليوم" بحيث يمكن أن يكون "اليوم الحاضر وهو يوم نزول الآية"، أو "يوم معين جدير بالامتنان بزمانه، ويجوز أن يجعل (اليوم) بمعنى الآن أي زمان الحال، الصادق بطائفة من الزمان.." وبخصوص إكمال الدين، يقول مستجمعا المعاني السابقة ومضيفا إليها: "هو إكمال البيان المراد لله تعالى الذي اقتضت الحكمة تنجيمه" (...) بحيث "صار مجموع التشريع الحاصل بالقرآن والسنة كافيا في هذه الأمة في عبادتها ومعاملتها وسياستها في سائر عصورها، بحسب ما تدعو إليه حاجتها، فقد كان الدين وافيا في كل وقت مما يحتاجه المسلمون، ولكن ابتدأت أحوال جماعة المسلمين بسيطة ثم اتسعت جامعتهم، فكان الدين يكفيهم لبيان الحاجات في أحوالهم بمقدار اتساعها، إذ كان تعليم الدين بطريق التدريج ليتمكن رسوخه، حتى استكملت جامعة المسلمين كل شؤون الجوامع الكبرى، وصاروا أمة كأكمل ما تكون أمة. فكمل من بيان الدين ما جاء به الوفاء بحاجاتهم كلها، فذلك معنى إكمال الدين لهم يومئذ". وقال في "إتمام النعمة": هو خلوصها مما يخالطها من الحرج والتعب(...) هو زوال ما كانوا يلقونه من الخوف، فمكنهم من الحج آمنين". وقال في: "ورضيت لكم الإسلام دينا": "أن هذا الدين دين أبدي، لأن الشيء المختار المدخر لا يكون إلا أنفس ما أظهر من الأديان، والأنفس لا يبطله شيء إذ ليس بعده غاية، فتكون الآية مشيرة إلى أن نسخ الأحكام قد انتهى".

وقد ذكر صاحب المنار تخريجا لقوله ابن عباس "إن الله أكمل فلا ينقصه أبدا" وقول عمر "ما بعد الكمال إلا النقص"، أن ابن عباس أراد الدين نفسه، وعمر أراد قوة الأخذ والاستمساك به والإخلاص فيه".

مع سيد قطب رحمه الله، نجد أنفسنا أمام مشهد رائع من التمثلات للآية ولمعنى الإكمال والإتمام والرضى.. إذ "يقف المؤمن أمام هذه الكلمات الهائلة فلا يكاد ينتهي من استعراض ما تحمله في ثناياها من حقائق كبيرة وتوجيهات عميقة ومقتضيات وتكاليف. إن المؤمن يقف أولا: أمام إكمال هذا الدين يستعرض

موكب الإيمان وموكب الرسالات وموكب الرسل منذ فجر البشرية (...) يرى أن كل رسالة قبل الرسالة الأخيرة – إنما جاءت لمرحلة من الزمان(...) حتى إذا أراد الله أن يختم رسالاته إلى البشر، أرسل إلى الناس كافة رسولا خاتم النبيين برسالة "للإنسان" لا لمجموعة من الأناس(...) رسالة تخاطب "الإنسان" من وراء والبيئات والأزمنة لأنها تخاطب فطرة الإنسان التي لا تتبدل ولا تتمحور ولا ينالها التغيير". وفي إتمام النعمة، يرى أنها: "إتمام نعمة الله على المومنين بإكمال هذا الدين(...) النعمة التي تمثل مولد الإنسان في الحقيقة كما تمثل نشأته واكتماله". وأما "ارتضاء الله الإسلام دينا للذين آمنوا (...) هو تعبير يشيد بحب الله لهذه الأمة ورضاه عنها حتى يختار لها منهج حياتها. وإن هذه الكلمات الهائلة لتلقي على عاتق الأمة عبئا ثقيلا(...) هو جهد الطاقة في شكر النعمة ومعرفة المنعم".

ولقد ذهبت جل تفاسير الشيعة إلى ربط الآية بالإمامة والولاية، "فأمر الإمامة من تمام الدين(...) ولم يمض صلى الله عليه وسلم حتى بين لأمته معالم دينهم وأوضح لهم سبيلهم وتركهم على قصد الحق وأقام لهم عليا (عليه السلام) علما وإماما.." كما نص على ذلك البحراني في: البرهان في علوم القرآن. فالكمال عندهم مرتبط بولاية على كرم الله وجهه" حيث تستعرض النصوص المعضدة الكثيرة من الروايات والآثار بهذا الصدد.

خلاصات معرفية ووظيفية.

نستطيع ان نلخص ما تقدم من أقوال المفسرين عن "إكمال الدين" في العناصر الموجزة التالية:

. انتهاء التشريع المتعلق بالحلال والحرام والفرائض والسنن والواجبات..

. عدم إمكان الزيادة في الدين أو النقصان منه, تعبدا وتشيعا..

. ظهور الدين ونصره وغلبة أهل الإسلام على أعدائهم بعد أن كانوا مستضعفين..

. حصول الأمن من العدو وعدم الخشية على الدين منه..

. تأمين الشريعة والدين من النسخ بدين وتشريع بعده كما نسخ هو ما قبله..

. ربط الإكمال بالتمكين من أداء نسك الحج الذي لم يكن بقي عليهم من أقوال الدين غيره..

. كل شريعة نازلة في وقت ما هي كافية لذلك الوقت. فالشرع أبدا كان كاملا، بعضه الى زمن مخصوص والثاني كمال إلى يوم القيامة..

. ربط الإكمال بالقياس، أي قياس ما لم يكمل على ما كمل. وجعل البعض الآية دليلا على نفي القياس باكتمال الدين..

. الإكمال يقتضي استعراض موكب الإيمان والرسل والرسالات منذ فجر البشرية..

. رأى أبو بكر في الآية أنها نعي للنبي صلى الله عليه وسلم، وكما قال: ليس بعد الكمال إلا الزوال. وفي هذا السياق يفهم كذلك قول عمر بنقص الدين، أي توقف الزيادة في أحكامه رغبة منه في المزيد من الأحكام والتعاليم تدينا.

. أن الرضا بالإسلام دينا هو إعلام فقط، فالله تعالى لم يزل راضيا بالإسلام دينا. وقيل هو رضا على الانقياد والطاعة وعلى كمال الدين.

. إتمام النعمة بسبب إكمال الدين.

. إتمام النعمة بخلوصها مما يخالطها من الحرج والتعب والخوف..

. الإسلام الذي رضيه الله أبدي لا يبطله شيء وهو أنفس الأديان..

. ربط معظم تفاسير الشيعة للآية بإمامة علي كرم الله وجهه..

ما تجدر ملا حظته بعد هذه التعريفات أن معظمها من خصائص ومكونات هذا المحدد بالفعل فلا نكرره، إذ تعطيه أبعادا دلالية ووظيفية تجعله أكثر قدرة تفسيرية. كما يمكن إعادة ترتيبها حسب اختيارات معينة كالورود والسياق والأولوية.. وغير ذلك. لكن نريد التعقيب على أقوال وردت وليس لها، أو لم يبق لها، نفس الدلالة التي كانت. فهي وإن تعلقت بأسباب نزول فلا معنى لتقييدها بهذه الأسباب التي تبقى مساعدة على الفهم لا مقيدة له. فالقران للعالمين وإعادة جمعه على غير أسباب نزوله ليس إلا تأكيدا وتأسيسا لهذا البعد.

. من ذلك الاهتمام بتحديد "اليوم"، فأي يوم قيل فيه فهو مناسب للقول ولو قيل في أول الإسلام لعنى الشيء نفسه، وأنه ابتداء الناس رحلتهم الايمانية مع الدين الكامل التام.

. منه أيضا الحديث "عما نزل بعد الآية وما لم ينزل" وهذا يلتحق بسابقه، فسواء نزلت بعد الآية أحكام أو لم تنزل فلا يغير ذلك من الواقع شيئا. فالقرآن قد أنزل كله تاما إلى السماء الدنيا جملة ثم تنزل منجما.

. من ذلك الحديث عن "النقص والإكمال" والذي قيل فيه كلام رائع باعتبار الكمال في كل مرحلة ثم التدرج في المراحل الكاملة نفسها إلى الإتمام والإكمال النهائي.

نضيف إلى ما تقدم أن الإكمال والإتمام أمر لا يتعلق بالأحكام فقط بل بكل أبواب ومداخل الدين: مباني الألفاظ ومعانيها، قيما وأخلاقا، حكما وأحكاما، فقها واعتبارا، إيمانا واعتقادا.. الخ. إذ كل لفظ مبنى ومعنى هو في القران على تمامه وكماله، فيه كل خصائص القران الإعجازية من إطلاق واستيعاب، وهيمنة وتصديق، وإمداد واستمداد تكاملا مع باقي الألفاظ والمعاني.. فاللفظ من القران كالخلية من الجسم تحمل كل خصائصه. وذلك كله إنما هو باعتبار الاستعمال الإلهي لهذه الألفاظ، وليس الاستعمال البشري لها وإن كانت هي عينها. ولهذا فالمفروض في تداولها أن يكون المهيمن عليها المعنى والدلالة الشرعية لا الاصطلاحات التاريخية، فالأولى مطلقة تعطي في كل زمان ومكان لأنها من مكنونة ومجيدة.. والثانية تبقى محدودة ونسبية مرتبطة بزمانها ومكانها ما لم تستند على المعنى المطلق. وهذا في تقديرنا هو من أهم عوامل انحصار العلوم والمعرفة في ثقافتنا الإسلامية التي لم ترتبط وظيفيا بالمفاهيم القرآنية وهيمنت عليها الاصطلاحات المختلفة.

فنحن لا نجد تعريفا للإيمان أو العلم أو الصدق.. أو غيره، أتم وأكمل مما في القران. فهو في القران على تمامه وكماله وهو في غيره نسبي محتمل، ولهذا نجد الاختلاف في التعريف والحدة فيه أحيانا بين المدارس والفرق بما يفقد ذلك اللفظ وظيفيته في بناء وتقويم العلم أو المعرفة. فيكفي في ذلك مثلا مقارنة لفظ الإيمان في القران وفي استعمالات الفرق العديدة المختلفة. وصدق الله العظيم حين قال: "وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم" [الأنعام: 112-115]. فبالصدق والعدل تمت الكلمات وبهما تقوم وتهدي وتصوب وترشد.. وليس ذلك لأي كلمات أخرى غير كلمات القران، ولهذا فإنه لا مبدل لها إذ هي بمثابة السنن النفسية والكونية التي لا تبديل لها ولا تحويل.

كما أن لمحدد الإكمال بالإضافة إلى نسقه الداخلي علاقة بالمحددات المنهاجية الأخرى. كمحدد "الختم" الذي يدل على الإكمال والإتمام. ومحدد "الحفظ" الذي يدل عليه كذلك. ومحدد " التصديق والهيمنة" بحيث لا يصدق ويهيمن إلا تام كامل. ومحدد "الوحدة البنائية" فلا يعكسها حقا إلا البناء التام

الكامل. ومحدد "الجمع بين القراءتين" إذ كمال البناء القراني معادل لكمال البناء الكوني.. وهكذا في سائر المحددات الأخرى.

وتبقى الحاجة إلى البحث في الأبعاد المنهجية الوظيفية لهذا المحدد قائمة في كل مرحلة. فبه وبغيره من المحددات، تصحح المعرفة وتقوم الأفكار ويسلم الاعتقاد والتدين ويكون التمكين والاقتدار على البناء والتعمير والشهود الحضاري على الناس بالحق وبالصدق وبالعدل، وذلك ما نروم فعله إن شاء الله في بحث مكمل متمم.